الشعاذة

د. غازي مختار طليمات
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي

المشهد الأول

«خيمة كبيرة تظهر فوق أستارها المرفوعة بأعمدة من خشب وجذوع، أشجار مثمرة، أسلحة من سيوف ورماح، في صدر المجلس زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، وإلى جوارهما خالد بن الوليد ومجاهدون من المهاجرين والأنصار، يدخل الخيمة جعفر بن أبي طالب، وينقل بصره في أرجاء الخيمة».

جعفر: التين والزيتون والأعناب في
مَعَانْ دانية الجنى لكل جان
أنحن في الميدان يا زيد أم الجنان؟

زيد: لو كانت الجنة كالوارف في معان والبلقاءْ
أو جلق الفيحاءْ
ما حنت الأرض إلى السماءْ
ولا هفت قلوبنا شوقاً إلى اللقاء

جعفر: لقاء من؟ قيصرَ أو رضوان؟

زيد: إن اللقاء بهما سيّانْ

جعفر: سيان؟ قل: شتّان ما بينهما شتانْ!
أين لقاء العلج من لقاء من يفضي إلى الجنان!؟

زيد: لقاءُ علج الرومْ
درب لما تروم
وسلّمٌ يصعده الشهيد كي يعانق النجوم
حينئذ يخترق المكان والزمان
إلى جنان الخلد في ثوان

«عبد الله بن رواحة يلصق خده بالأرض، طالباً ممن حوله أن يلزموا الصمت بإشارات متعاقبة»

جعفر: ما الأمر عبد الله؟

عبد الله: وَقْعُ فرسٍ يجري على الهضاب
يا خالد انظر

«يخرج ابن الوليد رأسه من باب الخيمة مستطلعا»

خالد: لست أرى إلا ذيول الريح والسراب

عبد الله «وخده على الأرض»:
يا ابن الوليد انظر بعين هدهد يخترق التراب
أو عين صقر تنطوي في هدبها السماء

عبد الله «بعد لحظات صمت»:
أسمعه يشتد، أو يمعن في الجري والاقتراب

جعفر: يا ابن رواحة الصدى يصافح الأطناب

«يخرج جعفر وينضم إلى خالد»

خالد: أرى عجاجا ثائراً
وفارسا يجري على جواد

عبد الله: يا ابن الوليد انظر، أ ذا عبّاد
أم فارس يسوقه الشوق إلى الجهاد

خالد: أظنه ابن قومك الخزرج يجتاح مدى البيداء

عبد الله «وبعد خروجه من الخيمة»
يسابق الرياح والأصداء

خالد: نعم هو ابنُ قيسٍ العينُ التي لا تعرف الرقاد

عبد الله: لعله رأى الذي يكيده الأعداء
فعاد من مربئه كالنيزك الوقاد
يفضح ما يحاك من مكر وما يكاد

عبّاد بن قيس «وهو ينزل عن فرسه متقطع الأنفاس»:

جعفر، عبد الله، أين القائد ابن حارثة؟

زيد: «خارجاً من الخيمة»: ويلك ما رأيت في البلقاء؟

عباد: إعصاراً يحوك كارثة
رأيت جيشين من الرومان والأعراب
غابين من لوامع السيوف والرماح والحراب
وراء هذا التل من عجلون والسلط إلى مؤاب

زيد: كم حشد الجمعان من سيوف
كأنها الجراد إذ تقذفه نجد أو الهفوف

زيد: أما سألت عنهم؟

عباد: بلى، سألت القوم في خفاء
فأظهروا ما أضمروا، وانكشف الغطاء
عن شرك ينصبه للمسلمين الشرك والدهاء
هم مئتا ألف

زيد: وممن هذه الألوف؟

عباد: الروم شطر القوم، والشطر من البهراء
ومن بني القين ولخم وجذام وبليّ
تموجوا كالبحر كالطوفان كالسيل العتيّ

زيد: ومن على الأعراب؟

عباد: عفريت، يسمى مالك بن رافلة
يرفل تحت راية الكفر أمام القافلة

مباهياً بالغدر والمروق
زيد: يا ويل الشقي
«زيد بعد تأمل وتجول: أمام الخيمة وبعد دخوله الخيمة مع صحبه»:
زيد: مـا الرأي يا قـوم، ومن يدرأ تلك النازلة؟
جعفر: نحن هنا القادة فلنعالج الأمر العصيّ
«خالد يهم بالخروج»: أمضي إذن فلست إلا أحد الأجناد
زيد: لا تمض، إن الرأي للأجناد والقواد أنت من القادة
جعفر: فلنكتب بهذا للنبيّ
ثلاثة آلاف من جنودنا تضيع في اللقاءْ
في مئتي ألف كما الهباء في الفضاءْ
أو حفنة الحصى إذا طغت عليها موجة من ماء
عبد الله: بأي شيء أمر النبيّ
خالد: إني أذكرُ
أمر زيداً
عبد الله: فهو بالإمرة منا أجدرُ
خالد: وقال: إن أصيب زيد فالأمير جعفرُ
عبد الله: وإن أصيب جعفرُ
خالد: فابن رواحة الذي يؤمَّرُ
جعفر: لكنه قال الذي قال، ولم يشاهد الحشودْ
ولو رآها تملأ الشعاب والنجود
قال لنا: عودوا إلى الحجاز بالجنود
عبد الله: أخطأت يا جعفر قد رآها
بمقلتي جبريل رأي العين من بعيد
لقد رآها قبل أن يحشدها ربّاها
جعفر: وما الدليل؟
عبد الله: دُولةُ اللواء
توارثُ الراية إن حم على حاملها القضاء
خالد: أما تساءلت: لماذا وُلّي القادة بالتوالي؟
جعفر: بلى، ولكن لم أجد ردا على سؤالي
خالد: هل أمَّر النبي قبل هذه الغزوة غير واحد؟
جعفر: لا، لا
خالد: فما تأويل أن تقودنا من بعد موت القائد؟
جعفر: لعله أن يشفع منا ساعداً بساعد
عبد الله: أيشفع الميت بالحيّ؟
جعفر: وكيف؟
خالد: «مشيرا إلى جعفر»: ما وعى مقالي
خالد: «متجها إلى عبد الله»: بشره عبدالله
عبد الله: أبشر إنها الشهادة
عبد الله «مشيراً إلى جعفر وزيد»:
تضيء في رقابنا الثلاث كالقلادة
خالد: يا ليتني الرابع كي أظفر بالجنة لا القيادة
عبد الله: لا تأس فالنبي أبقى خالداً لكل فتح خالد

خالد: كل خلود بائد إلا خلود الجنة
تقودنا إلى حماها الخيل والأعنة
إن لم أفز بها ففيم حملي السيوف والأسنة؟
عبد الله: من يشتعل بمثل هذا الشوق فهو بالغ مراده
خالد «بعد صمت ونظر إلى زيد»:
مالك يا زيد؟
أراك واجما
أضائق الصدر بما تسمع مني أم تراني واهما؟
زيد: لا ذا، ولا ذا، بل ذهلت حالما
خالد: تحلم بالمجد
زيد: نعم، برحلة والنفس مطمئنة
حواركم قد أضرم الحنين حتى خلتني أسيرْ
في كنف الفردوس، والعبير من جراحتي يفور
تلثمه لثم الفراش للندى العذب شفاهُ الحور
جعفر، ما تظنني؟
أزاعما أم واهما؟
جعفر: لا، لا أظن
بل أرى كل الذي صورته مؤتلقا
أرى جناحيّ يجوزان الجنان أفقا فأفقا
أشتم منها عبقا ثراً، وأحسو غدقا
فلننطلق غدا إلى الجهاد حتى شوطه الأخير
و«مؤتة» المضمار إن شقّ الشعاع في السماء الفلقا
***
المشهد الثاني:
«خيمة رابضة على رابية، تطل على ميدان المعركة، تسمع من بعيد حمحمة الخيل وصليل السيوف، في الخيمة رجال يضمدون الجرحى من المسلمين، يدخل واحد منهم».
أحد المضمدين: من ذا الذي أدماك يا أنصاري؟
الأنصاري: علجان من خلفي، وعلج من عن يساري
نازلتهم بسيفي البتار
أرديت الاثنين بيمناي
وباليسرى اقتنصت الشاردا
خنقته، حتى رأيت الموت يغشاه، فخر ساجدا
وحز وهو ساجد بسيفه الرعديد هذا الساعدا
المضمد: لله أنت بطلاً مجاهدا
نحرت نعجتين من قطيعهم
ثم خنقت الثالثة
الأنصاري: البطل الحق الفتى ابن حارثة
أجل أجل، هو البطلْ
كرَّ كرورَ السيل لا يثنيه واد أو جبلْ

وراية النبي فوقه تمور بالأملْ
وحوله غسان والرومان تحت غابة من الأسلْ
المضمد: يا للفتى!! ماذا فعل؟
الأنصاري: أرسل فيهم سيفه كالمنجل المرسل في السنابل
يحصد ما يقصد من هام على الكواهل
المضمد: وهل نجا من غابهم؟
الأنصاري: ماكر كي ينجو أو يفوتْ
بل كرَّ كي يميت أو يموتْ
المضمد: هل قتلوه؟
الأنصاري: بعدما روَّع ألف قاتل
المضمد: وراية النبيِّ
الأنصاري: قد بكت على زيد بكاء ثاكل
المضمد: وهل سباها الروم؟
الأنصاري: لا، بل نهضت عن شلوه تناضل
المضمد: ويحك، قد بالغت
الأنصاري: لا،
المضمد: بالغت، أيُّ راية تقارع؟
الأنصاري: تلك التي يجعلها رمحا كميٌّ بارع
فهو بها من غير درع دارعْ
يَصْرع أو يُصْرع، لا تثنيه عن غايته المصارع
المضمد: من ذلك الكمي يا أوسيُّ؟ أجعفر؟
الأنصاري: نعم، مضى كما قضى النبيُّ
براية الاسلام وهو بالردى رضيِ
«يدخل عبد الله بن رواحة ويده نازفة الجرح»:
إليَّ بالضماد
المضمد: عبد الله ما لكفكْ؟
عبد الله: جراحة تنزف
المضمد: لا تُرَعْ أخي بنزفك
وابسط يداً ما انقبضت إلا لكي نقبض نصل سيفك
لله أنت من فتى في ساحة الجهاد مستميت!
ما هذه الإصبعُ
عبد الله: ضمدها، وضمِّد فاك عن مدحي بالسكوت
فلو عراك ما عراني متُّ من خوفك حتف أنفكْ
المضمد: أخفت عبد الله جيش الروم؟
عبد الله: خوف الطفل من عفريتِ
ثم غسلت القلب بالإيمان من هوانه المكبوتِ
فأصبح العفريت أوهى رهبة من هدبة في طرفكْ
«بعد فترة صمت، وبعد أن يطيل عبد الله النظر إلى يده المضمدة»
عبد الله: إن أنت إلا إصبع دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ
لم تخلقي لخاتم من ذهب يبرق أو ياقوتِ
إن أنت لم تبقي على سيفيَ مسلولا فلا بقيتِ
«يدخل جريح نازف الجرح، ويتجه إلى عبد الله بن رواحة»
الجريح: يسأل عنك الجند عبد الله
عبد الله: عني سألوا؟
الجريح: نعم، وقالوا أنت بعد جعفر قائدهم والأملُ
عبد الله: وهل أصيب جعفر؟
الجريح: إصابة ينهد منها جبلُ
لكنه أقدم
لا ينكص خزيان، ولا ينخذلُ
الجريح «نحو المضمد ويده على جنبه النازف»
كأن جنبي جنب شخص ثانِ
عبد الله: ويحك ما أبصرتَ؟
الجريح: أبصرتُ ما هوَّن ما أحتملُ
أبصرته يشق بالراية جند الروم
شق المقص العضيب للقرطاس للأديمِ
عبد الله: ما فعل الروم؟
الجريح: أحاطوا بالفتى الوثَّابِ
سورا من الذئاب والحرابِ
عبد الله: ألم يُرَعْ؟
الجريح: بل راعهم بسيفه اللامع كالشهابِ
فانتثرت رؤوسهم تناثر البغاث من عقابِ
عبد الله: كيف نجا؟
الجريح: لم ينج بل أصيب، حز الساعدُ
حتى ارتمت يمناه من مرفقها، وما ارتمى المجاهد
عبد الله: هل سقطت رايته؟
الجريح: بل بقيت تجالدُ
قد سقطت يمناه فوق الأرض، واليسرى إلى السماءِ
صاعدة براية النبي مثل الصعدة السمراءِ
وعادت الزحوف بالسيوف والذئاب بالأنياب
لتفرس الفارس كي تمرغ الراية بالتراب
عبد الله: أما انحنى؟
الجريح: لو انحنى بها انحنت بها منا الرقاب
عبد الله: أما انثنى؟
الجريح: لو انثنى لنكصت بالأرجل الأعقاب
كرَّ على الزحوف والصفوف
وأشرس السيوف في طريقه تطوف بالحتوف
عبد الله: ألم يخف من الردى؟
الجريح: كيف يخاف وهو للردى أتى؟
ومنذ ولاه النبي والمنايا عنده هي المنى
والألق القدسي للجنة بين مقلتيه قد زها
ألا يخاف الخوف أن يمر بين هذه الطيوف؟
عبد الله: بلى، ولكن أين من يُبلي بلاء جعفرْ
الجريح: صبراً أبصِّرْك بما أبلاه وهو أبترْ
بعد ارتماء ساعديه كادت الراية أن تَحَدَّرْ
فشدها بالعضدين فارتقت خفَّاقة السجوفِ
عبد الله: بالعضدين؟
الجريح: قُلْ بجذموريهما قد رفع الشراع يخفق فوق لجة من جيشنا الشجاع فانقض من علوجهم أربعة سراع من أربع الجهات كالسور إذا تدورْ أغمد كل حاقد في صدره سلاحَهْ
عبد الله: يرحمه اللهُ
الجريح: وقال حين فاضت روحُهُ: رواحة

عبد الله «وهو خارج من خيمة الجرحى»

أقسمت يا نفس لتنزلنَّه
طائعة، أولا، لتُكرهنَّه
هل أنت إلا نطفة في شنَّة
جعفرُ ما أطيبَ ريحَ الجنَّة.

الجريح: جعفر ما أطيب ريح الجنة
جعفر ما أطيب ريح الجنة

المضمد: ويلك، أرسلت الفتى إلى الردى
من بعد ما ريع، وما ترددا

الجريح: أخرجته من حفرة الحيرة حتى
يستبين الرَّشَدا
يَسْفُرُ والنفس إلى سفارة النبي مطمئنَّة

***

المشهد الثالث:

«خيمة شدت أطنابها إلى جذوع نخل، وعلقت على جدرانها، وعلى جذامير السعف المقطوع سيوف ودروع. خالد بن الوليد وعباد بن قيس والجريح الذي شجع عبد الله بن رواحة في الخيمة» عبَّاد «نحو الجريح»: مالك مذ عدنا إلى تهامة منكر الجفنين، تلوي عنقا وهامة كالمذنب الغارق في الندامة

الجريح: أذكر عبد الله محمولا على الأعناقِ
فأنثني ألتمس العزاء في الإطراق والأشواقِ
كعاشق مفارق، يصبو إلى التلاقي.

خالد: أقصر، فهذا هاجس من نفسك اللوامة
يرحمه الله، فقد أغار حيًّا أحسن الإغارة
وميتا، كان سفيراً للنبي طاهر السفارة
لاتبك، فالمبكيُّ في جنته يرفل في النضارة

الجريح: ونحن من أجسادنا نصبو إلى انعتاق

عباد: أليست الجنة يا خالد من هذي الحياة أبقى؟

خالد: بلى، وأرقى جوهراً وأنقى

عباد: فَلِمْ إذن أنزلتني، وخلف عبد الله كدت أرقى؟

خالد: رأيت أن النصر في العودة لا التلاقي
فعدت بالجيش وشوق الناس للجنَّة في الأحداق

عباد: من بعد ما أخرجت سيفي العضب

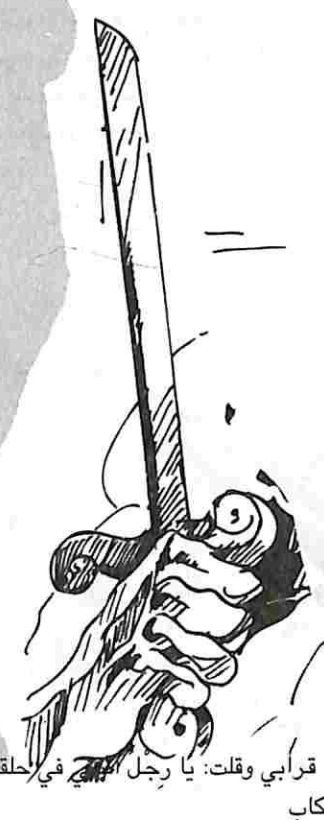

من قرابي وقلت: يا رجل [illegible] في حلقة الركاب
قيل: ارجعوا، فلم يكن بدٌّ من الإيابِ

خالد: عباد ما الجهاد؟

عباد: تضحية، فجنة تراد

خالد: بينهما ثالثة، يهفو إليها الجند والقواد

عباد: وما التي بينهما؟

خالد: شمس تزيل غبش الضبابِ

عباد: ماذا عنيتَ؟

خالد: حَمْلُنا النورَ إلى الأنام
ودمك الزيتُ الذي يوقد كي يبدد الظلام
أحرقه في المصباح
لا تُرِقْه في الأقداح كالمدام
ليستضيء بالسنى القدسيّ كل جبل وواد

الجريح: هذا الذي أراده عباد

خالد: لا لم يُرِدْ، أراد صب الزيت في البطاح لا المصباح
لن أهرق الدم الذي سيصنع الصباح
أنقذته من نفسه من سَوْرَةِ الجماح

الجريح: حرمته الشهادة

خالد: لله، لا.. لي، هذه الإرادة
أرجأتها للنصر، لليوم الذي تختاره القيادة
حينئذ ترنو إلى الشهادة الأرواح
وتدرك الأمر الذي تروم

عباد: أين؟

خالد: بوادي النيل أو دجلة أو عند تخوم الروم
فكل ما ذرت عليه الشمسُ، أو أطلت النجوم
ساح لنا فساحْ
حتى يظل الكون كل كوننا السماح
ويطرح الإنسان عن منكبه السلاح
ويعمر السلام كل بقعة حررها الإسلام
من ترهات الشرك والظلام

عباد: أيبلغ الجهاد بالإنسان كل هذه الآفاق؟

خالد: نعم، ويروي كل ما في القلب من أشواق في عالم يعمره الإيمان والأمان والوئام

عباد: وما الذي تفعل في عالمنا الشهادة؟

خالد: تشق كل طرق السعادة
بوهجها يحترق الأشرار كالشرار من نسغها تبرعم الأزهار في الأشجار
ودمها يلون الخدود في الصغار وصدرها للشهداء جعفر وصاحبيه دار لأنهم قد وفدوا فأحسنوا الوفادة

«تطفأ أضواء المسرح مصباحا إثر مصباح وتسدل الأستار ببطء، وعباد والجريح يرددان»:

أقسمت يا نفس لتنزلنَّه طائعة، أولا، لتكرهنَّه جعفرُ ما أطيبَ ريحَ الجنَّة!
نؤمها والنفس مطمئنَّة